الكذبة

للكاتب الروسي
ليونيد أندريف
(١٨٧١ - ١٩١٩)
ترجمة : ابراهيم الصيرفي

ـ تكذبين ، أعلم انك تكذبين ؟

ـ لماذا تصرح هكذا ، الا بد ان يسمعنا الناس ؟

ها هي تكذب مرة أخرى ـ أنا لم أصرح ، كنت اتكلم بمنتهى الهدوء والرقة ، امسكت بيدها وكلتها بهدوء ورقة ، كان لكلمة « الكذبة » البسامة وقع خفيف الضمان .

وطلب تقول لي « أحبك ، صدقني» واضافت بعد ان قبلتني «انقسمك هذه ؟ » لكنها انفلتت مني عند ما اردت ان أحتويها بين ذراعي ، خرجت من الممر المظلم الى قاعة الرقص حيث قارنت الحفلة نهايتها ، وبمتها ، لم أكن أعلم بتلك الحفلة ولا موعدها ، ومن أين لي ان أعلم ؟ هي التي اخبرتني ان آتي ، وقد حنت مرايت ارواحا من النسوان والشابات يراقصون طول الليل ـ لم يلت الى أحد ، ولا تحدث الى انسان ، كنت غريبا بين الجميع ، وجلست في ركن بجوار الموسيقيين ، وفي مواجهتي تم كبير نحاس ضخم له سمعين يصرح في وجهي بحظه ويقهقه أخرى بصوت ابح متهر « ها ، ها ، ها ! » .

ومل أن لآخر تنهادى الى سمعاية عطرة بعضاء ، انها هي حبيبتي ، ولا أدري كيف تاتي لها أن تداعبني دون ان يلحظها الآخرون ، ففي لحظة وحيرة تضغط بكتفها كتفي ، وفي لحظه اخرى اخمص عيني حتى أكاد أرى عنقها الأبيض وذراعها القصير ، وعندما رفعت وجهي رأيت حاجب وجه ساكن صارم ابيض ، كوجه ملاك جلس يتامل صوف قدور المسبين ، رأيت عينيها ، كانتا واسعتين ، تنهلان نورا ، جميلتين ، هادئتين ، وأشرق بأطرافها الاسودان ، تحيط بهما دائرتان ورقاوان ، وكلما نظرت فيها وجدتهما كما هما ، أسودان عميقا لا يسبر لهما غور ، لعلي لم أنظر فيهما الا لفترة وجيزة قدر ما يحتمل نبض قلبي ، على أني لم أحس قط في خوف وعمق بمعنى اللا نهاية ولم أعرف أبدا مدى قدرة سلطانها الا في تلك اللحظات ، احس في خوف وألم ان حياتي جميعا داست في عينيها كشعاعة رقيقة من نور ، حتى أصبحت غريبا عن نفسي ، فارغا ، صامتا ـ بل ميتا ولكنها انفلتت مني وتركتني وحيدا ، أخذت حياتي معها ، وراحت ترقص مع رجل جميل وسيم قاره ، ورحت أدرس كل تفاصيله ـ شكل حذائه ، سعة ما بين كتفيه الشامخين ، نموج خصلة متمردة من شعره ـ واذ يمسح في الحائط في نظرة لا مبالية ولا ناظرة ، متى أعدو

تافها مسطحا امام تلك العين ، كالحائط ذاته .

وتقدمت منها عند اطفاء المصابيح قائلا : آن أن نرحل . وستاتي معي .

وأجابتني في دهشة ولكني داهمة همه .

واشارت الى الغريب الوسيم الغارق الذي لم يكلف نفسه عناء الالتفات الينا . واحدسني الى الغرفة المجاورة وقبلتني .

وقلت لها في رقة وهدوء «تكدين» .

واجابتني تعال غدا . سنلتقي غدا لا بد أن تاتي .

وفي طريقي الى بيتي كان الصباح البارد الاحمر يظل على الاسطح العالية لم يكن في الطريق كله سوانا ، انا وشبح . كان يجلس منكمشا على نفسه يخفي وجهه من لسع برودة الريح . وكنت انا ايضا اجلس من خلفه منكمشا على نفسي محميا وجهي جميعه عدا عيني .. كانت للصباح افكاره ولي افكاري . ووراء تلك الحوائط الصماء آلاف من الناس ينامون ، لهولاء ايضا احلامهم ولهم افكارهم . كنت افكر فيها وكيف كانت ، وفكرت في الموت . وبدالي أن تلك الجدران ، وقد حلمت عليها أضواء الصباح مع نورها ، قد راقني ميتا ، وان هذا سر برودتها ولم يتسنى لي أن اعرف فيم كان يفكر الشبح ، كما لم يتسن لي أن أعرف فيم كان يحلم هؤلاء المحبوسون وراء الجدران . وهم ايضا لم يتسنى لهم أن يعرفوا فيم افكر ، وفيم احلم .

ظللت أسير عبر الشوارع الطويلة المستقيمة حتى عبر الضوء كل ما حولي وعدا كل شيء ابيض ، متحركا . وتهادت الى سحابة عطرة بيضاء ، وصحت نادى قهقهة سخيف « ها ، ها ، ها ! » .

كانت تكدن . لم تات ، وعيشا طال انتظاري . وهبطت من السماء العاتمة قطعة من الظلام محتدمة ، باردة ، قاسية ، مطيعة . وأنا لا أعلم متى يتحول الشفق الى مساء والمساء الى ليل دامس ، كنت افكر فيه ليلا طويلا متصلا واحدا . كنت دائما اسمع جيئة ودهابا على المطى المتعبة الوئيدة ، حطى الانتظار . جيئة ودهابا . لم اقرب كثيرا من البيت الشامخ الذي تعطن فيه حبيبتي ولا دنوت من باب واجهته الزجاجي الذي بدا لي ، من انعكاس ظل شراعته الحديدية عليه ، اصفر . كنت دائما في الجانب الآخر ، اقطع الطريق جيئة ودهابا . وفي كل مرة اواجه فيها الباب الزجاجي لا أستطيع ابدا أن ألمح عيني بعيدا عنه . وفي كل مرة ابتعد فيها اتوقف مرات كثيرة لالتفت اليه . وبدت قطع الثلوج ابرا حادة تخز وجهي ، وتظل في طريقها حادة محترقة الى أن تصل قلبي فتعتصره باللهعة المصيبة وعذاب الترقب اليائس . كانت الريح الباردة تهب من الشمال الى الجنوب المعتم ، وتصفر ، وترتطم بالاسطح التي تراكمت عليها الثلوج لتحرف منها هبطة لتلمسح وجهي بحد الثلوج الصغيرة الحادة فتحدث ما يشبه صوت الرمال تسفيها الريح على زجاج المصابيح في الشوارع المهجورة ، اذ ارتعش الشعاع الأصفر الوحيد من قسوة البرد ومال

تحت وطأته ، واصبحت لهذا الشعاع الأصفر الخافت في وحدته ، لا يعيش الا في الليل ، وظننت ان الحياة سرعان ما تتوقف في ذلك الطريق ، فهمت أن البادر بالفرار ، ولم تبق الا بقع البلوح تتطاير عبر الفراغ والا الشعاع الأصفر الخافت يرتعد ويتخلى في وحدة وبرودة .

انتظرتها ، ولم تأت . وبدا لي ان الشعاع الاصفر في وحدته وأنا شبيهان، لولا أن مصباحي لم يكن قد فرغ بعد من زيته . ومن حين لآخر كان بعض العابرين يمرون بالمكان الذي أدرعه بخطاي . كانوا يظهرون خلفي في صمت، صباحا معتمين، ثم يمرون بي ثم يختفون. فجأة كانت رمادية وراء ركن لبيب بني أبيض . ثم يعودون الى الظهور مرة أخرى من وراء الركن مقبلين علي . ثم يتجاوزونني ليدوبوا في بقع في مكان رمادي بعيد تملؤه تلوح تتحرك في صمت . كانوا جميعا يشبهونني ، بملابسهم الثقيلة ، بصمتهم ، باشكالهم غير المحددة . وظننت ان كثيرا ممن يتجمدون يمشون مثلي حيثة ودهابا ، وانهم ينتظرون ويرتعدون في صمت ، مثلي ، وانهم يحترون افكارهم الحزينة المبهمة .

انتظرتها ، ولم تأت . ولم ادر لماذا لم أصرح ولم أبك أبدا . ولم أدر لماذا كنت أضحك ، لماذا كنت سعيدا . وصممت أصابعي كأنها مخالب، وخيل لي انني أقبض بها في شدة على كائن صغير سام ، الحية ، الكذبة ! والتف الحية حول ذراعي وتلدغ قلبي . وبدأ سمها يسري . كان كل ما حولي كذبة . اختفت الحدود بين المستقبل والحاضر ، وبين الحاضر والماضي . اختفت الحدود بين الرمل الذي لم أكن قد وطئت فيه بعد والرمل الذي بدأت احيا فيه — واعتقدت اني كنت احيا منذ الأزل . أو اني لم أوجد أبدا . كانت حبيبتي تسيطر علي دائما . من قبل أن أحيا وبعد أن وجدت . وكان غريبا علي أن أطلق أن لها اسما أو جسما ، وان لوجودها بداية ونهاية . كانت بغير اسم ، لكنها كانت المرأة التي تكذب دائما ، والتي تدفعك الى انتظارها ثم لا تأتي أبدا . ولا أدري لماذا كان ماكان، غير أني ضحكت واحترقت ابر حادة قلبي . وقهقه في أذني سخيف « ها ، ها ، ها ! »

وفتحت عيني على نوافذ لبيت الكبير مصباحة ، تتحدث في هدوء بالسنتها الحمراء والزرقاء . تقول لي :

« انها تخدعك الآن . في هذه اللحظة الحميمة الوصيفة الخادعة تصغي الى همسات الغريب الوسيم الغاره ، الذي يحتقرك . وانت في تحولك الضال في انتظار وألم — لو انطلقت اليها وقتلتها ، لصنعت خيرا . تكون قد قتلت الكذبة» .

أطبقت قبضتي على مقبض كل السكين التي أمسك بها وأحببت النوافذ ضاحكا « نعم . اقتلها » واحاطتني النوافذ في حزن « لن تقتلها — ابدا — فالسكين التي تطبق عليها يدك ليست الا كذبة كمثلاتها » .

اختفت كل الظلال الصامتة المسطرة منذ بعيد ، وظللت وحيدا في تلك البقعة الباردة ! انا وشعاع يرتعد من البرد واليأس . واحد جرس ساعة برج كنيسة غير بعيدة يدق معلنا عن الوقت .

كان صوته المعدني المرتعش يبكي ، كان يطاير في الفضاء ويتوه في ندف الثلج المتساقطة الحزينة . وبدأت اعد الدقات وأصحك. الساعة الثالثة صباحا كان برج الكنيسة هرما . وكذلك الساعة كانت هرمة . وكثيرا ما كانت دقاتها تنفلت من قيودها وتظل تتوالى الى أن يصعد قارع الاجراس المحور فيوقفها بيده . على من كانت تلك الدقات الحزينة الراعشة تكذب ؟ تلك الدقات التي أطبق عليها الظلام القاتم البارد وخنقها ! يالها من كذبة تافهة .. مسكينة .. حمقاء !

وانصفق الباب الزجاجي عند الدقة الاخيرة المحتضرة من ساعة الكنيسة . وخرج الرجل الوسيم العازب . لم أر الا ظهره ، ولكني عرفته . ورغم اني لم أره الا عند امس بكبريائه وشموخه الا انه اليوم كان اكثر شموخا وكبرياء . كان أكثر اعتدادا وعزما . أنا ايضا طالما عادرت هذا البيت على تلك الحالة . انها الطريقة التي يمشي بها من قبلته شفاه أنثوية كاذبة .

صرخت وتوعدت وصرخت على اسمائي وقلت لها :

« قولي الحقيقة ! »

وتوجه في برودة الثلج وحاجبين ارتفعا دهشة ، تشع من تحتهما دائما عينان متهمتان لا يستر لهما غور .. أجابتني « وهل كذبت عليك ؟ »

هي تعلم اني لاأستطيع اثبات كذبها وان كل اثر لأفكاري المتشددة الشاكة لا تلبث أن تزول لدى أول كلمة تصدر من فمها . لدى أول كذبة . وانتظرت الكلمة ، وخرجت من فمها . كانت تنزل ، في ظاهرها . تستر الحقيقة ، وكانت في أعماقها قاتمة « أحبك ! انا دائما لك » .

كنا بعيدين عن المدينة وكانت الحقول المغطاة بالثلوج تظهر من خلال النوافذ المعتمة . كان الظلام يحيط بها . من فوقها ومن كل جوانبها ، ظلام كثيف مقبض صامت . ولكنها كانت رغم هذا تشع بصورتها المحترقة كوجه جنة في الظلام مصباح وحيد يضيء الغرفة الفسيحة الدافئة . وعلى لهبه الاحمر تنعكس شحوب الحقول الهامدة .

وقلت لها « اود أن أعرف الحقيقة ، ولا يعنيني الى أي مدى هي مخزية . ربما أموت لدى سماعها . على أن الموت أحب الى من الجهل بها . احس الخداع في عينيك . أذكري الحقيقة وسامحني بعد عملك ما جئيت » . لكنها بقيت صامتة واخترقت بصمتها قلبي . أعماق قلبي . وسيرتها .. وعرفتها . وصرخت بها ! « أحبني والا قتلتك ! »

وأجابتني في برود « اقتل . أحيانا تغدو الحياة أثقل من أن تحتمل . هلا قتلت وعيدك ؟ »

وارتميت الى جوارها على الارض باكيا .. اطلب الرحمة . والحقيقة !

وأحرت أصابعها في شعري قائلة « مسكين ! مسكين ! »

وعدت أصرع اليها ان ترحمني وان تذكر الحقيقة .

ونظرت الى جبهتها الناعمة وخيل لي أن الحقيقة تكمن وراء تلك الصفحة الرقيقة . وانتابتني رعشة محمومة في

تعريق جمجمتها لأرى الحقيقة . وهي جنون راودني أن أمزق صدرها الابيض باظافري ، لأرى ، ولو لمرة واحدة ، قلبا انسانيا عاريا . كانت دالية المصباح الصفراء تحيط وشيكا في صمت ، وامتدت الجدران الداكنة موحلة في الظلام . كان الجو حريريا جدا . موحشا جدا . مخيفا جدا .

وقالت : « مسكين ! »

وفي شهقات متلاحقة سريعة حادة . . صاحت . . سقط اللهب ثم انقلب الى الزرقة . . ثم انتهى . واحاط بنا الظلام . لم أتمكن من رؤية وجهها ولا عينيها . كانت ذراعاها تحتضنان رأسي . لم أعد أحس بالكدمة واغلقت عيني . لم افكر ولم أحي . كنت فقط أمتص بروحي . بكيائي لمسات يديها . وبدت لي صادقة . وفي الظلام ترامى الى صوتها الهامس حانيا غريبا : « صمتي اليك . اني خائفة ! » .

ويعب الهمس ليطيق الصمت . . ويعود الهمس الخائف في خوف .

« اتريد الحقيقة ؟ هل اعرفها أنا ؟ لكم أود أن أعرفها ! صمتي اليك . احبني ! يا للرهبة ! »

وفتحت عيني . كان ظلام الغرفة الشاحب قد فر هاربا من النوافذ الكبيرة ، متجمعا على الجدران ، مختبئا في الاركان . ومن خلال النوافذ أطل ضوء كثير ناصع البياض . يبدو أن عيني ميت كانت تتطلع الينا . . كان كائنا ما يطويا في قبضته المتجمدة . والتصقنا أحدنا بالآخر ، في شدة . كنا نرتعد ونهمست : « اوه ! يا للرهبة ! »

قتلتها !

قتلتها ، وضعت قدمي فوق جثتها وضحكت . عندما كانت ملقاة على النافذة كتلة شاحبة محددة . تلك النافذة التي تمتد من تحتها الحقول البيضاء . وقفت فوق جثتها وضحكت . لم تكن قهقهة مجنون . ابدا ! ضحكت لاني كنت أتنفس في حفز وانتظام . لان صدري كان يحتسي السعادة في اعماقه والسلام . . والعزاء . وسقط عن قلبي ما كان يثقله . وانشبت أتطلع الى العينين الميتتين . عينان واسعتان شهوتان بالنور ، بقيتا مفتوحتين . كانتا كعين دمية من الشمع . واستطعت أن أمسهما باصبعي أن أفتحهما واغلقهما . لم أعد أخاف لان حتى الكذب والشك لم يعد يسكن تلك العينين السوداوين اللتين لا تبصران . . اللتين كم شربتا في ظمأ من دمي .

عندما قبضوا علي كنت أفهقه . وظن الذين أمسكوا بي أن ما فعلته مجرد وقيع . وانصرفوا عني متهقهقين في حقد ، وتقدم مني آخرون . تقدموا مني في فرع وتوتر وعلى شفاههم كلمات لوم . تقدموا مني في ثبات . ولكن عندما رأوا نظرة الفرح والبهجة تطل من عيني شحبت وجوههم وارتدوا متهقهقرين .

وصاحوا جميعا « مجنون ! » وتبين لي أن هذه الكلمة قد هدأت من روعهم اذ جلت لغزي ، أنا المجنب وكيف قتلت حبيبتي ثم لا أزال أفهقه . رجل واحد فقط ، سمين ، أحمر الوجه ، مرح أطلق على صفة أخرى . صفة جعلت الضوء يقيم في عيني .

قال عمي : «مسكين ! مسكين !» قالها بعطف وتململا مرارة لانه كان سميعا ومرحا .

وصرخت به : «اسكت ، لا تقل ذلك عمي !» .

ولا ادري لماذا صرخت فيه . لم اكن اريد ان اقتله ، ولا أن المسه . ولكن المحتشدين معي طلبوا بي الجنون وحسبوني مجرما بالتهم صرختي فانفجروا في صرخات هلع وفزع دفعت بي أن أقع في عاصفة من الضحك .

وعندما قادوني خارج الغرفة التي يرقد فيها الجثة ، نظرت في عناد الى الرجل السميين وصرخت في وجهه : «أنا سعيد ! أنا سعيد !» .

وكانت هذه حقيقة مشاعري .

***

رأيت في طفولتي ذات مرة وأنا في حديقة الحيوانات فهدا أليفا حيالي واستبد بافكاري طويلا . لم يكن كغيره من الحيوانات الاخرى . تلك الحيوانات التي تنام في غباء او تحدق في الزائرين باعين فارغة . كان يمشي في قفصه من ركن لآخر في خط مستقيم . وفي خطوات محسوبة بدقة . يستدير في نفس المكان المعتاد ، يحك فروته الذهبية في فضبان معينة من القفص دائما . كان يمشي مطأطئا رأسه الصارية ، الصارمة . ينظر الى الخلف دائما . لم يحد عن دورته مرة واحدة . كان الزائرون يحتشدون حول قفصه طوال النهار ، كانوا يتكلمون ويحدثون ضجيجا لكنه كان دائما في مسيرته وما التفت مرة واحدة الى المحتشدين فيه . كانت قلة من الزائرين تضحك لمشهده اما البقية فكانت تنظر اليه في اهتمام وربما في وجوم . الى الصورة الحية من القتامة واليأس . ثم تنصرف عنه في زفرة حرى . ينصرفون ثم ما يلبثون ان يعودوا مرة اخرى لالقاء نظرة مستعرة ، نظرة لاتستطيع ادراك شيء ، ثم يمضون كان شيئا مشتركا يجمع بينهم . بين هؤلاء الاحرار والوحش الحبيس . ومهما قال الناس او قالت الكتب عن الأبدية بعد ذلك . فقد عرفت الأبدية بكل عذاباتها من هذا الوحش .

عدت كهذا الفهد في زنزانتي الحجرية رحت امشي فيها وافكر امشي على خط واحد . اعبر الزنزانة من ركن لآخر . وحيدا بعيدا تجري أفكاري عبر خط ضيق قصير . افكار ثقيلة يحيل الى معها أني عدت بلا راس ، وانها احمل صوتا كاهلي عالما بأسره . أفكار تتقمص كلمة واحدة . ولكي اية كلمة قاتلة معذبة كبيرة . تلك هي « الكذبة » .

الفجيع مرة اخرى ، يزحف من كل الاركان ليلتف مطوقا روحي . على أنه لم يعد تمامنا صغيرا ، لقد بدا ... بدا عدا حية لامعة ، وحشية ، ضخمة . لتخنقني وطوقتني بحلقات من حديد . وعندما فتحت فمي صارخا من الألم خرج صوت كفحيح الحية ، مصغرا ، مثيرا وكان صدري جمعه قد نفض نحشد من الحيات « الكذبات » .

ومرت بين افكاري وتبدلت أمام عيني ارض الزنزانة السوداء اللامعة ، الى هاوية رمادية ، شفافة ، بلا قاع . ولم

تعد قدماى تتعثران بوقعهما على الحجر وحيل الى انى اسمع فوق ظلام وصياب عال لا يحد . وعندما تخلص صدرى من زفرة الفحيح ، من هناك .. من أعماق صدرى ، خلف ذلك الرداء الرقيق الذى لا يستر ما وراءه - من هناك ترددت فى بطء أصداء مفزعة « فى بطء شديد وفى هدوء كانما تقطع آلاف السنين . وفى كل لحظة ، وفى كل درة من صياب ، تفقد الاصداء من قوتها شيئا . وادركت انها فى المحدر هناك . فى الضاع .. تصغر كالرياح التى تمزق الشجر . وترامت الى اذنى كاسماء السوء فى كلمة واحدة مقتضبة « كذبة » .

اثارتنى تلك الهمسة الخسيسة ، فصرخت الارض بقدمى صارخا « لا .. لا كذبة بعد .. قد قتلتها ! »

وابتعدت عن عمد ، لانى أعلم أنهـا ستجيب . وفى هدوء وفى بطء ترامت الى الاجابة من هـوة عميقة بلا قاع « كذبة » .

ها أنت ترى كيف تعقد الامر . لقد ارتكبت خطأ مميتا « لقد قتلت المرأة .. وخلدت الكذبة ! لا تقتل امرأة ولا صارعا ، متألما ، ظانا انك تستشرع الحقيقة من روحها .

هكذا كنت افكر فى زنزانتى .. فى مسجنى من ركن لآخر .

مظلم ذلك المـكان الذى حملت اليه حبيبتى الصدق والكذب .. وانى لماض اليه « ولسـوف القـاها فوق عرش الشيطان ، ولسـوف آخر راكعا على ركبتى قائلا لها وسط بكائى « أرينى الحقيقة ! » .

يا الهى ! لقد بقيت الكذبة - الكذبة خالدة - أحسها فى كل درة من درات الهواء « وعندما اتنفس يتشرب الفحيح مع الهواء الى صدرى يمزقه . يمزقه !

آه ! أى جنـون يترصد من يبغى الحقيقة !

لا نجاة ! لا نجاة !